

## الهرولة نحو بيت لحم

بيري أندرسون

يوليه/ أغسطس 2001

تمر الآن تسعة أشهر على اندلاع الانتفاضة الثانية ضد أطول احتلال عسكري رسمي في التاريخ الحديث إذ يدخل الآن سنته الخامسة والثلاثين. وبطبيعة الحال يرجع النزاع حول فلسطين إلى أبعد من ذلك بكثير، فالصدامات الأولى بين العرب واليهود يبدأ تاريخها من عشرينات القرن الماضي. ومنذ 1948 خاضت إسرائيل خمس حروب كما أن حربين أهليتين انطلقتا بواسطة الآثار الجانبية في دولتين مجاورتين. ومهما تكن المعارك في الشرق الأوسط فلا توجد حولها إلا انفصامات ضئيلة اليوم في الغرب. فهنا من المأمون القول إنه ما من قضية عالمية كبرى يتحقق حولها مثل هذا التوافق وتدور مثل هذه الرطانة الزائفة بقدر مسألة فلسطين – فعملية السلام التي يصفق لها بالإجماع الرأي العام المحترم تواصل الامتداد افتراضاً طوال عقد من الزمان ولا يمكن تعريض تقدمها للخطر إلا بالجوء إلى العنف. وتمضي الحكمة الرسمية مؤكدة أنه في مصلحة كل الأطراف أن يفرض على الانتفاضة في الضفة الغربية وغزة التوقف الفوري. وبطبيعة الحال إن اختراق هذه الكتلة الصخرية من التعنيم والتشوش التي تحيط بالعلاقات بين الإسرائيليين والفلسطينيين والتي تعد الحكمة الرسمية ناتجها النهائي مهمة تتجاوز أي عرض موجز لها هنا. ولكن بعض الاعتبارات الأساسية يمكن تسجيلها.

-1-

النزاع بين اليهود والعرب في فلسطين هو صدام بين نزعتين قوميتين كان القرن الماضي مليئاً بأمثاله. ولكن خصوصيته بقيت قائمة في عدم التماثل بين الطرفين المتصارعين. فالوعي القومي الفلسطيني تبلور متأخراً منبثقاً عن هوية عربية أوسع بعد الكارثة التي حلت بالجماعة بعد الهزيمة الساحقة بواسطة الأسلحة اليهودية عام 1948 – بعد ما عرف بالنكبة. وعلى النقيض كانت النزعة القومية اليهودية التي فرضت على نظيرتها الفلسطينية المجيء إلى الوجود قد اتخذت شكلاً تنظيمياً عند منعطف القرن. وكانت الحركة الصهيونية التي أسسها هرتزل نوعاً ما من النزعة القومية الإثنية في وسط وشرقي أوروبا أثناء القرن التاسع عشر، حيث وجدت كتلة أنصارها- كمثال نموذجي لصحوة شعوب مقسمة أو مقهورة في المنطقة في فترة ما قبل وما بعد الحرب العالمية الأولى. إلا أن سمتين حددتا وضع اليهود. فمن ناحية هم لم يستقروا في أرض مشتركة (ولم يتكلموا لغةً مشتركة) بل كانوا مبعثرين في جيوب عبر القارة. ومن ناحية أخرى كانوا يمتلكون تقليدًا دينيًا شديد القدم هياً لهم أساساً بديلاً –مباشراً أو غير مباشر- للهوية، مرتبطاً بوطن مقدس خارج أوروبا. وحينما تتخذ الصهيونية هدفاً لها إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل فإنها تستطيع أن تقترب من تعبئة احتياطات الطاقة اللاهوتية والثقافية، التي هي أكثر قدرةً على تعويض غياب أرض أو أساس لغوي خاص بهم تقليدياً.

وحتى ذلك الوقت كان من الممكن أن تكون العقبات أمام خلق دولة قومية تبعد آلاف الأميال عن موقع مجموعات مؤيديها في أرض قد سكنها آخرون زمنًا طويلاً تحت حكم دولة واسعة الأرجاء تمثل عقيدةً دينيةً أخرى مما لا يمكن

تجاوزها لولا عامل إضافي كان قادرًا على جعل الصهيونية شيئًا أكبر من أن تكون إحدى الحركات القومية في ذلك الزمان. فمن الناحية السوسولوجية كان يهود أوروبا ينقسمون إلى شعبتين، الأولى في أوروبا الشرقية وعلى الأخص في بولندا وروسيا حيث كان معظمهم فقراء ومسحوقين معرضين للإذلال والخطر من جانب كل تحيز عدائي من اللاسامية المسيحية، في وضع أسوأ حتى من أكثر قوميات المنطقة خضوعًا للقهر، والثانية في غربي أوروبا، وكانوا لا يضمون أعضاء كثيرين من الطبقة الوسطى الميسورة – من أصحاب الملكية والثقافة- فحسب بل بعض أصحاب أعظم الثروات في القارة كذلك. وفي طرف من أوروبا كان هناك المدينة الصغيرة للرسام شجال (فيتبسك من روسيا)، والسياسي المنشفي الروسي مارتوف، وفي الطرف الآخر المالية العليا لآل روتشيلد وواربرج والمنصب الرسمي لذرنايلي. ولكن ظل معاداة السامية سقط على اليهود جميعًا مهما تكن ذروة الثروة أو السلطة التي يمكن أن يصلوا إليها رابطًا مراتب الحياة الأعلى إلى الأدنى كما أوضحت قضية دريفوس –الحدث المفجر للصهيونية. ولكن في الحقبة الجميلة (الازدهار في بداية القرن العشرين) تمتع الطرف الأعلى من يهود أوروبا مع ذلك بحق الدخول إلى الدوائر الحاكمة لأوروبا الإمبريالية بقدر يتجاوز أحلام أي قومية مقهورة في ذلك الوقت. ودون هذا التحديد المزدوج المتناقض من أعلى ومن أسفل ما كان في استطاعة الصهيونية قط أن تحقق أهدافها.

-2-

أعطت الحرب العالمية الأولى للحركة انطلاقتها بتصريح بلفور عام 1917 الذي أعلن التأييد البريطاني لخلق وطن يهودي في فلسطين والذي جاء في أعقاب وعود فرنسية أسبق. وكان قرار لندن بمناصرة الصهيونية نتاجًا لا غموض فيه لحسابات بين القوى الإمبريالية، هدفه المباشر حشد الرأي العام اليهودي في روسيا وأمريكا وراء المجهود الحربي للحلفاء في لحظة صعبة بعد ثورة فبراير في روسيا، وقبل دخول الولايات المتحدة في الصراع، مع تسجيل هدف ضد المخططات الفرنسية على فلسطين. وعلى أي حال كان وراء القرار ميل إيديولوجي طويل الأمد داخل الثقافة البروتستانتية ذات التعلق القوي بالأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم التي تحبذ عودة اليهود إلى الأرض المقدسة<sup>1</sup>. وهذه الجديلة من الصهيونية المسيحية التي تفخر بمكانة متميزة ترجع إلى القرن السابع عشر شكلت خلفية أساسية للدرع الذي قدمته النخبة الإمبريالية البريطانية لتصعيد بناء المستوطنات اليهودية في فلسطين بمجرد أن أكدت بريطانيا سيطرتها على المنطقة في فرساي. وفي 1918 كان هناك 700 ألفًا من العرب مقابل 60 ألفًا من اليهود في فلسطين وبعد عشرين سنة كان هناك مليون وسبعون ألفًا من العرب مقابل أربع مائة وستين ألفًا من اليهود. وهكذا اكتسبت الصهيونية طبيعتها المزدوجة الخاصة. إن حركة تنتمي إلى النزعة القومية الإثنية الأوروبية أصبحت دون انفصال شكلًا من أشكال الكولونيالية الأوروبية فيما وراء البحار. كما كانت مستعمرة المستوطنين التي خلقتها الصهيونية في فلسطين ما قبل الحرب منقطعة النظر. فخلافا للمستوطنين الإنجليز في أمريكا الشمالية أو أستراليا لم يواجه المجتمع اليهودي المغلق صيادين وجامعي ثمار مبعثرين بل كثافة سكانية فلاحية لا يمكن تنحيتها أو محوها

<sup>1</sup> - بين هؤلاء الذين دعوا إلى استعادة اليهود أرض إسرائيل أو تنبأوا بها كان ملتون ولوك ونيوتن وبريستلي (جوزيف)، وفيخته وبراونينج وكذلك الحالة المعروفة بقدر أكبر لجورج إليوت. ويمكن أن نحصى وسط السياسيين شافيتسبري وبالمرستون وميلنر ولويد جورج. وفي تقليد التنوير كانت هناك دعوة نابليون لليهود أن يسترجعوا بالقوة إرثهم أثناء حملته على سوريا عام 1799. أنظر دراسة ريجينا شريف المتأنية لهذا الموضوع المهمل: الصهيونية اللايهودية. لندن 1983 في صفحات متفرقة.

Regina Sharif: Nonjewish Zionism, London, 1963

ووسط النخب السياسية والبيروقراطية في أغلب الأوقات كانت الصهيونية المسيحية متوافقة تمامًا مع معاداة السامية ما دامت تتعهد برحيل اليهود المحليين إلى الأرض المقدسة.

بالقوة. وبخلاف المستوطنين الفرنسيين في الجزائر أو المستوطنين الهولنديين السابقين في جنوب أفريقيا لا يستطيع المستوطنون اليهود استغلال العمال المحليين على نطاق واسع دون المخاطرة بخلق مجتمع من المستوطنين المولودين في المستعمرة يكونون فيه أقلية. فلا يمكن تنفيذ مهمة بناء دولة –أمة متجانسة عرقيا في بيئة معادية إلا بواسطة خلق جماعة انفصالية ترتبط معًا بالاعتقاد الإيديولوجي ولا يقسمها أي تباين طبقي – وهذا يعني نزعة الكيبوتز، التي هي من الناحية الذاتية في الأذهان اشتراكية الإلهام، ولكنها في التطبيق الحل الوحيد المتاح لمشكلة الاستيطان بدون عمالة محلية، أو أرض خالية أو مشروعات تخاطر برأسمالها في أوسع مساحات بأقل نفقة<sup>2</sup>. وكان مصطلح "الفصل العنصري" مجرد تعمية في جنوب أفريقيا، فلم يكن هناك قط أي تنمية منفصلة للأعراق، ولم يكن المصطلح إلا لفظًا في التعبير عن أشد أشكال استغلال البيض للسود تطرفًا، ولكن شيئًا شبيهًا به كان الهدف الانتقالي المؤقت للصهيونية فيما بين الحربين. وكانت الأرض اليهودية المعزولة في فلسطين متميزة في جانب آخر أيضًا. فمنذ البدء كانت مجتمع مستوطنين بدون بلد أصلي، مستعمرة لم تنشأ عن عاصمة، بل لقد كان وراءها إمبريالية بالوكالة. فالقوة الكولونيالية البريطانية كانت الشرط المطلق للاستيطان اليهودي. فبدون الدروع المصفحة للجيش والبوليس البريطانيين كان في استطاعة الأغلبية العربية التي تشكل تسعين في المائة من السكان أن توقف تصاعد البناء الصهيوني ليظل في وضعه الأول بعد الحرب العالمية الأولى. لقد اعتمدت الصهيونية في نموها بالكامل على عنف الدولة الاستعمارية البريطانية، وحينما تحقق السكان العرب في النهاية من مدى التغلغل اليهودي هبوا في ثورة ضخمة استمرت من أبريل 1936 حتى مايو 1939 هي من الناحية التاريخية أول الانتفاضات وآخرها. وقد نشرت لندن 25 ألفًا من قوات البر والجو لسحق التمرد، في أضخم حرب استعمارية شنتها الإمبراطورية البريطانية طوال فترة ما بين الحربين. وقد تزعمت الجماعة اليهودية الحملة المناهضة للتمرد وحرصت عليها، فاليهود شكلوا أغلبية فرق الموت التي قادها الجنرال وينجت (وتسمى قوات الدفاع اليهودي). وبنشوب الحرب العالمية الثانية كانت الإمبريالية البريطانية قد كسرت ظهر المجتمع السياسي الفلسطيني ممهدة الطريق لانتصار الصهيونية بعد الحرب.

-3-

ولم يكن المستوطنون اليهود الذين استقروا في حضن الإمبراطورية البريطانية متوحدين في انسجام تام معها. فالاحتكاك بين المستوطنين وراء البحار وقاعدتهم في عاصمة بلادهم كان من ثوابت التاريخ الكولونيالي ابتداءً من مقاومة الثورة الأمريكية عام 1773 للضريبة على الشاي في بوسطن إلى إيان سميث (في روديسيا) ومنظمة الجيش السرية الفرنسية في الجزائر<sup>3</sup>. وبخلاف المستوطنين الآخرين كانت العلاقة بين المجتمع اليهودي والحكومة البريطانية في لندن خالية من الصلات العاطفية للقرابة أو الثقافة. ومهما تكن درجة الولع بالانجليز عند سمسرة في

<sup>2</sup> هذا هو استنتاج مؤلف جيرشوم شافير الأساسي "الأرض والعمالة وأصول النزاع الإسرائيلي الفلسطيني 1882-1914" Gershom Shafir: Land, Labor and the Origin of Israeli Palestinian Conflict. الذي يتعقب بزوغ منطق "العمالة اليهودية حصرا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وتحليله للسنوات التالية تجده في "الصهيونية والكولونيالية، مدخل مقارن" في الكتاب الذي حرره إيلان بابيه "المسألة الإسرائيلية الفلسطينية – لندن 1999 ص ص 81-96.

<sup>3</sup> أوضح مكسيم رودنسون ذلك منذ وقت طويل في كتابه: إسرائيل هل هي دولة استعمار استيطاني؟ نيويورك 1973 ص ص 64-5.

Maxim Rodinson: "Israel: A Colonial Settler State?" New York, 1973 pp 64-5.

لندن من أمثال وايزمان، فإن الميثاق بين الكولونيالية البريطانية والقومية اليهودية عند قادة الجماعة الاستيطانية المتشددين كان يتعلق بالوسائل العملية فحسب<sup>4</sup>.

وقد تصاعدت التوترات بمجرد أن حاولت لندن في مسعاها للحد من السخط العربي أن تضيق تدريجياً من الهجرة اليهودية وسط تعاضم الاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا. ولكن الحرب العالمية الثانية أتاحت للجناح المسلح من الصهيونية العمالية وهو تيار رئيسي أن يكتسب خبرة وعتاداً تحت القيادة البريطانية وأن يحقق تأييد تشرشل لدولة يهودية مستقلة في فلسطين بمجرد أن نضع الحرب أوزارها<sup>5</sup>. أما جناح الأرجون من الصهيونية وهو الأكثر تطرفاً والأصغر حجماً بكثير والذي كان يقوده بيجن فلم ينتظر حلول السلام بل شن عصياناً مدنياً ضد بريطانيا في عام 1944 مما أغضب بن جوريون الذي تعاونت قواته مع البريطانيين لمطاردة جناح الأرجون. وأرغمت ضوابط الهجرة المستمرة بعد 1945 حينما عرفت الضخامة الكاملة لمصير اليهود الأوروبيين تحت النير النازي عصابة الهاجاناه أن تتنصوي تحت استراتيجية عصابة الأرجون. ولمدة سنة كانت بريطانيا تواجه بتمرد مكتمل النمو من جانب المستوطنين، وعلى الرغم من أن الصهيونية العمالية وقد روعها التهديد البريطاني وإجراءاته الصارمة دعت إلى وقف الصراع في أغسطس 1946 فإن عصابتي الأرجون وال L.H.I. لم يتوقفا قط. وفي ربيع 1947 أعادت بريطانيا انتدابها إلى الأمم المتحدة.

#### -4-

وفي الماضي كما هي الحال الآن اقرأ بدلاً من الأمم المتحدة الولايات المتحدة. فسيطرة أمريكا على المنظمة في نيويورك وإن تكن أقل شمولاً من اليوم ظلت كافية لتحديد نتيجة المداولات فيها حول فلسطين. وفي واشنطن كان ترومان صهيونياً مسيحياً راسخ الإيمان. وقد أقرت لجنة بحث يرأسها قاض سويدي وإلى جانبه رالف بانث السياسي الأمريكي وتنتصت عليها الميكروفونات الصهيونية أن فلسطين ينبغي تقسيمها. فاليهود ولهم 35 في المائة من السكان ينبغي أن يحصلوا على 55 في المائة من الأرض والعرب ولهم 65 في المائة من السكان لا يحصلون إلا على 45 من المائة من الأرض. وداخل الدولة اليهودية المقترحة سيكون هناك عدد من العرب مساوياً تقريباً لعدد اليهود، أما داخل الدولة العربية فلن يوجد تقريباً أي يهودي. وهذه النسب قد تم تبريرها على أساس أن الهجرة اليهودية في المستقبل إلى إسرائيل من المؤكد أن تخلق أغلبية حاسمة على الأرض المخصصة لهم في الزمن القادم. ولا جدال في أن الاتحاد السوفييتي وقد أثرت فيه حملة الأرجون المناهضة للإمبريالية مع أنه الطرف الوحيد الذي كان قادراً على

<sup>4</sup> - نجد بعض التعليقات الصارمة على مدى فهم وايزمان للانجليز في كتاب ديفيد فيتال: الصهيونية: الطور الحاسم، أكسفورد 1987 ص 163. وكان جابوتنسكي في ملاحظته أقل عاطفية وأصفي نظراً: ص 365.

David Vital: Zionism: The Crucial Issue, Oxford 1987.

<sup>5</sup> - كانت صهيونية تشرشل طويلة الأمد مبنية على معتقدات عرقية أكثر منها دينية. وقد عبر عن معتقداته الداروينية الاجتماعية دون لبس إلى لجنة بيل Peel عام 1937 مفاًراً العرب الفلسطينيين بالرمز الذي يضرب به المثل للأنانية التنافسية في عالم الحيوان: أنا لا أوافق على أن الكلب في المذود له الحق النهائي في ملكية المذود (معلق الدواب) حتى لو كان قد ألقى هناك زمناً طويلاً جداً. أنا لا أقر بهذا الحق. أنا لا أقر على سبيل المثال أن ظلماً كبيراً قد أصاب الهنود الحمر في أمريكا، أو السود في أستراليا. أنا لا أقر بأن ظلماً قد وقع على هؤلاء الناس بواسطة حقيقة أن عرقاً أقوى، عرقاً أعلى مرتبة، عرقاً أعلى حكمة وتطوراً - كما يجب أن نتصور الأمر - قد جاء وأخذ مكانهم. أنظر: مارتن جيلبرت: وينستون تشرشل - أعماله الكاملة - المجلد الخامس، الجزء 3. بوسطن 1983 ص 616. Martin Gilbert: Winston S. Churchill, comp. vol. 5. Part 3.

اعتراض الترتيبات ناصرها: وتلك هي الخدمة الجوهرية التي قدمتها هجمات بيجن التي لا تحيد على بريطانيا. أما مقاومة الخطة التي كانت منتشرة وسط الأمم الأصغر في هيئة الأمم فقد تغلبت عليها الرشاوى والابتزازات الأمريكية لتأمين ثلثي الأصوات في الجمعية العامة<sup>6</sup>. وقد أطلق ترومان المهندس المعماري للنتيجة على نفسه بكل حق أنه قورش الجديد (مؤسس الإمبراطورية الفارسية 548 ق. م. من البحر الأبيض إلى هندوكوش الذي اتصف بتسامح ديني، فالأمم المأسورة في بابل مع اليهود أعيدوا إلى أوطانهم وسمح لهم بأخذ آلهتهم معهم). وقد أثارت أنباء قرار هيئة الأمم انتفاضة فلسطينية تلقائية سحقت في غضون ستة أشهر بواسطة المجتمع اليهودي بينما تطوق القوات البريطانية الحلبة ضامنة منع أي جيش عربي من التدخل. وعند رحيلها أعلنت دولة إسرائيل، وجاء هجوم الجيوش العربية متأخراً، وقد اندحرت بواسطة جيش الدفاع الإسرائيلي في الشهور الأولى من 1949 لأنه يفوقها عدداً وعتاداً باستثناء واحد هو شرط الانتصار اليهودي. فالخطة الحقيقية للتقسيم سبقت الخطة الزائفة. لقد قدمت القيادة الصهيونية صفقة سرية للنظام الملكي في الأردن، تاركة له الضفة الغربية في مقابل إطلاق يدها في الأماكن الأخرى مادام الطرفان مصممين على إحباط أي فرصة لقيام دولة فلسطينية، وظلت الأردن دولة عميلة لبريطانيا التي أومات بالموافقة على الصفقة. وحينما نشب القتال أطبق الملك عبدالله على الفريسة وترك حلفاءه يتدبرون أمرهم دون مساعدة منه. وبذلك خرجت إسرائيل من الحرب مستولية على أراض أكبر كثيراً مما منحها لها هيئة الأمم، على حين ضمت الأردن الضفة الغربية<sup>7</sup>.

#### -5-

وفي مجرى موجتي القتال بين نوفمبر 1947 ومارس 1949، ولكن أثناء الموجة الأولى أساساً، تم طرد نصف السكان العرب خارج فلسطين بواسطة الهجمات اليهودية، ما يقرب من 700000 من الأشخاص. وقد تجاسرت الصهيونية على الافتراض الضمني ابتداء من منتصف الثلاثينات بوجود إخلاء أرضها المختارة من العرب بواسطة الطرد بالقوة لأن وجود العرب لا يتمشى مع الدولة القومية المتجانسة التي تريدها الصهيونية، وكان من الواضح عندئذ أنه لا توجد فرصة لشراء خروج العرب بالحسنى. وفيما ليس للنشر كان قادة الصهيونية صرحاء في تبني هذا المنطق. ولكن حينما جاءت الفرصة انتهزوها. وقد ساعدهم في ذلك موجات هرب العرب من ديارهم، ولكن الخوف

<sup>6</sup> - بعض اللامسات نجدها في ليبيريا دولة مستوطنين خلقت بمبادرة أمريكية قيل لها إنها سترك بمقاطعة المطاط إذا تجاسرت على التصويت ضد خطة الأمم المتحدة. ولا أقل من قاضيين من المحكمة العليا -مورفي وفرانكفورت- جعل الفيليبين تركع. وبرنارد باروخ كانت عضويته مهددة بالشطب لتهديد فرنسا بأن كل معونة أمريكية ستقطع إذا صوتت ضد التقسيم. وقال السفير الكوبي إن إحدى بلاد أمريكا اللاتينية (قد تكون كوبا نفسها) استهدفت لأسبقية الضغط من جانب ترومان قبل عدة أيام (وظلت كوبا رافضة للعب) ودفعت لها 75 ألفاً من الدولارات ثمناً لصوتها. أنظر: مايكل كوهين: فلسطين والدول العظمى 1945-1948، برنستون 1982. ص ص 294-99.

Michael Cohen: Palestine and the Great Powers, 1945-1948. Princeton 1982. pp 294-99.

ويلاحظ كوهين أن التعاطف بسبب مذبحه اليهود لم يكن كافياً لتغيير القرار. وقد يكون بسبب عوامل أكثر دينوية أن تم الحصول على الأصوات الزائدة المطلوبة في الساعة الحادية عشرة.

<sup>7</sup> - أنظر رواية آفي شلايم Avi Shlaim في "التواطؤ عبر الأردن، الملك عبدالله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين، نيويورك 1988" Collusion Across the Jordan. King Abdullah, Zionism, and the Partition of Palestine ص ص 110-16. وقد قبض الملك عبدالله ثمن توأطئه نقداً بعد أن أوضح لمبعوث من الوكالة اليهودية "أن من يريد أن يسكر لا ينبغي عليه أن يحصي الكؤوس" ويعني كما يقول شلايم أن "من يريد دولة عليه أن يقوم بالاستثمارات الضرورية" ص ص 78-82.

الذي دفعهم إلى الهرب كان راجعاً إلى حملات قتل وتشريد الحرب التي شنتها القيادات الصهيونية العليا، وفيها كانت المجزرة وكان النهب والإرهاب أدوات سياسية لنشر الرعب وسط السكان المستهدفين<sup>8</sup>. وقد أطلقت حرب الاستقلال اليهودي عملية تطهير عرقي ضخمة استقرت فوقها إسرائيل كدولة منذ ذلك الحين. وتم تنفيذ عمليات الطرد في الشروط النموذجية لليل والضباب، تحت غطاء الظلام العسكري التي ارتكبت فيها أمثال هذه الجريمة في القرن العشرين. فالمنتصرون صمموا سلسلة متميزة من الكلمات اللطيفة حللها جبريل بيتربرج لتضع الأفتعة على مصير الفلسطينيين. فالتطهير لم يقتصر على البشر، بل تم الاستيلاء على الأرض والممتلكات بسرعة وعلى نطاق واسع لم تحققهما أي جماعة أخرى من المستوطنين في التاريخ الاستعماري. ففي 1947 امتلك اليهود سبعة في المائة من أرض فلسطين، وفي نهاية عام 1950 امتلك اليهود اثنين وتسعين في المائة من الأرض داخل الدولة الجديدة. وشملت الغنمة البيوت والمباني من كل نوع<sup>9</sup>، ولم يتجاوز الباقيون من العرب 160 ألفاً كلاجئين داخليين في إسرائيل.

وفي موازين الإرهاب لا تقارن النكبة العربية بمحرقة اليهود Shoah. فإبادة النازي لليهود في أوروبا كانت شرّاً فادحاً من مرتبة مختلفة، وكان عدم التناسب بينهما قد استخدم تقليدياً لتبرير أو التخفيف من فداحة طرد الفلسطينيين الذي هو أساس من أساس دولة إسرائيل. وحتى اليوم تغطي عباءة إبادة اليهود أفعال الدولة الصهيونية لا في عيون سكان إسرائيل أو يهود الشتات وحدهم، بل الرأي العام الغربي في عمومه. ولكن من الناحية التاريخية لا توجد صلة بينهما (أو قد توجد صلة ضئيلة). وفي 1947 كان مقاتلو الهاجاناه والأرجون على علم بما جرى لليهود الواقعيين في شرك أوروبا النازية، ولكنهم ما كانوا سيتصرفون على نحو آخر حتى لو كان كل فرد من أقرانهم قد تم إنقاذه. فالأهداف الصهيونية قد وضعت قبل أن يصل هتلر إلى السلطة بزمن طويل ولم تتغير بمجيئه. إن بن جوريون قال ذات مرة إنه كان مستعداً للتضحية بحياة نصف الأطفال اليهود في ألمانيا إذا كان ذلك هو ثمن إحضار النصف الآخر إلى فلسطين بدلاً من تركهم جميعاً آمنين في إنجلترا<sup>10</sup>. وكان مصير العرب أطفالاً وكباراً أقل كثيراً من أن يؤخذ في

<sup>8</sup> - كانت المقاصد الخاصة والتصريحات العامة متباعدة من البداية. فمنذ الوقت المبكر عام 1895 سجل هيرتزل في يومياته: "سنحاول نفي السكان المعدمين ليخرجوا عبر الحدود بتهيئة أعمال لهم في بلاد العبور بينما سنرفض إتاحة أي أعمال لهم في بلدنا. ويجب تنفيذ عملية انتزاع ملكية وإزاحة الفقراء بتكتم وحيطة". وفي 1938 قال بن جوريون للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية أنه لا يرى أي خطأ في فكرة "الترحيل القسري" للسكان العرب، وشرح ذلك قائلاً: "أنا أحيذ تقسيم البلد لأننا حينما نصبح أصحاب نفوذ قوي بعد إقامة الدولة سنلغي التقسيم وننتشر في جميع أنحاء فلسطين". وفي 1944 كان يحذر زملاءه بأنه من "سوء السياسة مناقشة" الترحيل "علانية لأن ذلك يمكن أن يسبب لنا ضرراً في الرأي العام في العالم"، معطياً الانطباع بأنه لا مكان لنا في فلسطين دون طرد العرب، وبذلك يرغم العرب على الاختجاج وهم مترجعون". وقد أضاف إلياهو دوبيكين وهو زميل من الماباي في فظاظة "سيكون في هذا البلد أقلية عربية كبيرة ويجب طردها ولا مكان في هذه المسألة لكوابنا الداخلية". أنظر بني موريس Benny Morris "زيارة جديدة للخروج الفلسطيني" Revisiting The Palestinian Exodus عام 1948 في: روجان وشلايم (محررين) "الحرب من أجل فلسطين، إعادة كتابة تاريخ 1948" كمبريدج 2001، صص 41-7.

<sup>9</sup> - باروخ كيمرلنج: الصهيونية والأرض: البعد الاجتماعي الإقليمي للسياسة الصهيونية. ص 143.  
Barouch Kimmerling: Zionism and Territory. The Social-Territorial Dimension of Zionist Politics, Berkley, 1983, p.143.

<sup>10</sup> - أنظر بني موريسون: "الضحايا المبررون أخلاقياً، تاريخ الصراع الصهيوني العربي 1881-1999".  
Benny Morrison: "Righteous Victims, A History of the Zionist-Arab Conflict. 1881-1999, London 1999. p 62.

وقد ذكر بن جوريون هذه الملاحظة في 1938 بعد شهر من ليلة الكريستال (Kristall Nacht).

الاعتبار. فهدف الدولة القومية اليهودية في الشرق الأوسط لا يسمح بأي حل آخر إلا الذي تحقق قسراً بواسطة النكبة. وبعد الحدث استعملت إبادة اليهود ذريعة أو عاملاً مخففاً، ولكن لم تكن لها تأثير على النتيجة. ففي أوروبا وأمريكا أكسبت حرب الاستقلال للصهيونية تعاطفاً تاريخياً، ولكن ذلك لم يكن قط عاملاً حاسماً في نجاحها. يقال إن كل النزعات القومية العرقية -وكل النزعات القومية الضيقة هي بقدر معين عرقية- تحوي بذور عنف ممكن ضد القوميات الأخرى. وليست السمات الثقافية المغايرة بل الأوضاع التاريخية هي التي تحدد لتلك البذور أن تثمر. لقد ولدت النزعة القومية اليهودية من ترابط يأس منزوع الأرض وامتياز اجتماعي سياسي. ومثل معظم الحركات القومية فإنها حشدت مثلاً عليا وشجاعة متحمسة وسط أنصارها. ولكنها لا تستطيع تحقيق أهداف جاءت بسهولة نسبية أو بطريقة سلمية إلى الآخرين ذوي المواقع الأوفر حظاً إلا بواسطة التواطؤ الاستيطاني ونزع ملكية أصحاب الأرض بالعنف. ولهذا المشروع تطلبت الصهيونية كوادراً شديداً المراس قامت بتربيتهم على نحو ملائم. وفي معرض النزعات القومية الحديثة يأتي سجلهم في قمة طيف القسوة والوحشية التي يتزاحم عليها الآخرون. وما من سبب لإعلاء شأن نجاحهم الذي اعتمد بقدر كبير على القوة الإمبريالية أو تجميل سلوكهم الذي تواصل عواقبه التقيح حتى يومنا الحاضر. ولكنهم لم يكونوا استثنائيين في متابعة هدفهم. إنهم القائمون العاديون بالتطهير العرقي.

-6-

ولكن الدولة التي بزغت من الانتصار الصهيوني كانت أقل عادية. فمن الناحية القانونية صارت إسرائيل جمهورية قائمة على الدم والدين فيها تجتمع معايير الطائفية الدينية والنزعة البيولوجية لتعريف المواطنين الفعليين أو الممكنين ذوي الحقوق الكاملة بأنهم الأفراد إما المولودون من أم يهودية أو المعتنقون لعقيدة موسوية بصرف النظر عن الموقع الجغرافي. ويضمن قانون العودة حق الإقامة في إسرائيل لأي شخص تنطبق عليه هذه المتطلبات اللاهوتية العرقية بينما يغلق الباب أمام أي عودة للاجئين الفلسطينيين إلى بيوتهم. وقد تم امتصاص ما يزيد على خمسة ملايين من المهاجرين اليهود اللاحقين داخل إسرائيل في الخمسين سنة التالية، على حين تم الهبوط بالعرب إلى وضع دائم الدونية، وحرم عليهم حق شراء أرض أو أملاك يهودية ودخول الخدمة العسكرية أو التنظيم بدون قيود سياسية. وفي هذه الأثناء سيطرت الدولة الصهيونية على ما يفوق 90 في المائة من الأرض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بينما تحكم الذراع النقابي لحزب العمل الحاكم في مجموعة من المشروعات، بنوك ومصانع وخدمات تستخدم حوالي ربع قوة العمل. وبلغ الإنفاق العسكري دوماً أعلى معدل في العالم يصل إلى ما بين 25 و40 في المائة من الدخل القومي الإجمالي، مؤدياً بسرعة إلى بناء ترسانة نووية. لقد كانت زيادة السكان اليهود في إسرائيل بمقدار ستة أضعاف وخلق جماعة لغوية جديدة من هذا العدد الكبير من القادمين المتباينين بمثابة إنجاز متميز في الهندسة الاجتماعية. وفي الرد على هزيمة 1948-1949 اضطهدت دول عربية متعاقبة وأطردت جماعاتها اليهودية التي منحتها إسرائيل مأوى كريماً وترحيباً في تعارض قوي مع مصير اللاجئين الفلسطينيين في الأراضي العربية. وبانهيار الاتحاد السوفياتي تم هضم إسرائيل بنجاح لموجة هجرة ضخمة إليها. وتلك إنجازات عالية القدر. ولكن هذا النيان من الناحية الاقتصادية لم يكن قط قادراً على الحياة اعتماداً على نفسه. فالشيء الوحيد الذي جعله ممكناً كان المنح المالية الهائلة من الخارج.

وطوال ثلاثين عاماً بعد الاستقلال لم تقترب الضرائب الداخلية قط من الوفاء بالنفقات الرسمية<sup>11</sup>. وقد صبت الوكالة اليهودية أموالاً من الشتات، وقدمت ألمانيا الغربية تعويضات واسعة النطاق، ولكن كلاً منهما بمفردها ما كانت تستطيع أن تكون كافية لتسديد التزامات إسرائيل المالية. إن الولايات المتحدة هي التي جعلت القلعة الإسرائيلية ممكنة. ولم يتم أحد قط بالحساب الدقيق للقيمة المتركمة لتحويلات الأموال من جانب واحد، من الدولة الأمريكية، والكثير منها مخبأ في أدغال من البنود التكنيكية. ولكن هناك القليل من الشك في أنه كما كتب آفي شلايم عن العقد الماضي: "لم يحدث قط في حويلات التاريخ الإنساني أن كان مثل هذا العدد الضئيل من الناس مديناً بالكثير جداً للكثيرين جداً"<sup>12</sup>. وباللغة الأكثر تخصصاً تقنياً لاثنين من المحللين المخلصين كانت إسرائيل "دولة ريعية دخلها يتكون في المحل الأول من مبالغ ثابتة (ريع) لم تكسبها بإنتاجها"<sup>13</sup>. فتدعيم وتوسيع الدولة اعتمد بالكامل على تمرير هائل للسلاح والأموال من واشنطن. وفي الحقيقة، إن عصا القيادة الإمبراطورية التي تخلت عنها المملكة المتحدة عام 1948 قد انتقلت إلى الولايات المتحدة. ومنذ ذلك الحين اعتمدت الصهيونية على درع صلب من القوة الأمريكية، كما فعلت من قبل مع القوة البريطانية. إلا أن عمق وقوة تلك العلاقات صارت ذات مرتبة مختلفة. ولا يرجع ذلك فقط إلى أن الولايات المتحدة أغنى وأقوى بما لا يقاس من بريطانيا حتى في أوجها، دع جانباً انحدارها في سنوات ما بين الحربين. وأثناء تلك الفترة مارست الجالية اليهودية التي صارت أكثر المجموعات المهاجرة نجاحاً في الولايات المتحدة تأثيراً على الدولة يتجاوز أحلام أي نظير في ماضي اليهودية الأوروبية. فالصهيونية الأمريكية المتحصنة في دوائر الأعمال والحكومة ووسائل الإعلام قد اكتسبت سيطرة حازمة على روافع الرأي العام والسياسة الرسمية تجاه إسرائيل لم تضعف إلا في أندر المناسبات. ومن حيث التصنيف اكتسب المستوطنون بهذا المعنى بعد زمن شيئاً يشبه سيطرة العاصمة أو دولة داخل الدولة كان ينقصهم في البداية. ومن ناحية أخرى سلكت إسرائيل كوكيل موثوق به للولايات المتحدة في أكثر من عملية إقليمية. وقد نمت قوة هذا المحور مع كل عقد. وفي التسعينات زاد تدفق مقادير دعم الولايات المتحدة لإسرائيل ثلاثة أضعاف. ولا يوجد دليل أكثر إحصائياً على حميمية العلاقة من الموقف الختامي

<sup>11</sup> - على سبيل المثال تجاوز إجمالي النفقات العمومية سبعين في المائة من الناتج القومي الإجمالي في كل من السنوات بين 1980 و1985. فالضرائب وحدها لا تستطيع تمويل مثل هذا المعدل من النفقات، ولكن بسبب معونة الولايات المتحدة والمصادر الأجنبية الأخرى التي ليست ديوئناً، لم يكن ذلك ضرورياً في الواقع. وفي سنة الحرب اللبنانية عام 1982 تم تعبئة ما يكفي من الموارد الأجنبية للسماح للحكومة بتسهيل ما يبلغ 71،5 في المائة من الناتج القومي الإجمالي في النفقات، بما يبلغ 56،6 في المائة في التمويل الداخلي. ياكير بلسنر: الاقتصاد السياسي لإسرائيل، ألباني، 1944، ص 177.

Yakir Plessner: The Political Economy of Israel. Albany, 1944. p. 177.

<sup>12</sup> - الجدار الحديدي - إسرائيل والعالم العربي. لندن، 2000. ص 487.  
The Iron Wall – Israel and The Arab World, London. 2000. p. 487.  
ولا يشير شلايم إلى سنوات ما بعد الاستقلال، بل إلى التسعينات.

<sup>13</sup> - جيرشوم شافير ويواف بيليد: "مدخل نشر الليبرالية الاجتماعية الاقتصادية في إسرائيل" في إسرائيل الجديدة - صنع السلام ونشر الليبرالية، بولدر 200 ص 6. "في السنوات الأخيرة وصل مجموع التمويل الخارجي في شكل منح ومساهمات وتحويلات لا ترد حوالى ستة ملايين دولار سنوياً، وفقاً لتقرير The Economist Intelligence Country Report لإسرائيل 2000، وفوق ووراء مثل هذا السخاء المجاني (الذي مصدره التعاطف) يلاحظ "كان رصيد حيوي من أرصدة الاقتصاد الإسرائيلي مثلاً في التحالف الوثيق مع الولايات المتحدة الذي كان منفذاً للحكومات الإسرائيلية إلى الانتماء الرسمي طويل الأمد، وتحت مظلة الضمانات الرسمية إلى سوق السندات المحلية في الولايات المتحدة ص. 37.

Gershom Shafir and Yoav Peled, 'Introduction to Socioeconomic Liberalization of Israel', in Shafir and Peled, eds, The New Israel-Peacemaking and Liberalization, Boulder 2000, p.6.



عالي التكلفة لحكم كلينتون، المتمثل في طرق أخرى كثيرة، في العفو الرئاسي عن نصاب بلجيكي هارب في مبادلة لاعتبارات مالية يطلب شخصي ملح من رئيس وزراء ووزير خارجية إسرائيل يتلوه طلب عمدة القدس والرئيس السابق للموساد.

-7-

هز خلق إسرائيل العالم العربي وأسهم في صعود نزعة قومية جديدة، أكثر قوة في مصر وسوريا والعراق خلال الخمسينات. وبمنطق الصهيونية العمالية التي رأت في ذلك تهديدًا محتملاً تأمرت مع فرنسا التي كانت مشتبكة في ذلك الوقت في الحرب الجزائرية ومع بريطانيا التي أغضبها بشدة تأميم قناة السويس لشن العدوان الثلاثي على مصر في 1956. وقد أوقف أيزنهاور العدوان بإدراكه خطر دفع ناصر إلى أحضان الاتحاد السوفييتي وبحقنه على عدم التشاور قبله مع الولايات المتحدة. وتم تعلم الدرس من جانب إسرائيل، فبعد إحدى عشرة سنة، وحصولها على المباركة الأمريكية محت القوة الجوية المصرية وسيطرت على سيناء ومرتفات الجولان، وضمت القدس الشرقية واحتلت سيناء وغزة في حرب الأيام الستة الخاطفة الاستباقية. كما تم إحباط هجوم مضاد عربي في 1973 بواسطة جسر بحري وجوي هائل، قاذفات مقاتلات، وناقلات قوات ودبابات. وبعد ست سنوات في استجابة لحث من الولايات المتحدة تخلت حكومة مصر عن حلفائها وعن الفلسطينيين وتركهم لمصيرهم بتوقيعها على صلح منفرد لاسترجاع سيناء. وبتحرر إسرائيل من خطر الجنوب المصري هاجمت الشمال مرة ثانية، وغزت لبنان في 1982 لتدمير القواعد الفلسطينية هناك واحتلال منطقة عازلة.

لاحظ أيزاك دويتشر في 1967 أن إسرائيل بدأت مسارًا أطلق عليه تحقيق انتصارات تؤدي بنفسها إلى الموت (بالألمانية sich totsiegen)<sup>14</sup>، ولكن الانتصارات توالى دون أمارة على الموت، وإن بقيت صعوبة واحدة. فاحتلال الضفة الغربية وغزة وضع مليونًا ونصف المليون من الفلسطينيين تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي، وهو عدد أكبر كثيرًا من أن يتم هضمه باعتبارهم دون مستوى المواطنة بأسلوب 1950، ومن أن يُطردوا كلاجئين بأسلوب 1948 في غياب حرب أطول امتدادًا. لقد كانت حرب 1967 الخاطفة أسرع كثيرًا من أن تحقق تطهيرًا (طردًا) ضخماً – ففي هذه الأيام لم يخضع إلا 120 ألفًا من العرب للتهجير بأثر رجعي، وهو عدد ليس كافيًا تقريبًا لتغيير التركيب السكاني السليبي ليهودا والسامرا. وبهذا المعنى الأكثر محدودية كان دويتشر على صواب. لقد انقسمت النخبة الإسرائيلية حول العواقب. فالصهيونية العمالية التي اقتربت من الإصغاء لتحريضات بن جوريون لتضم الضفة الغربية تمامًا وفي الحال ترددت وأضاعت فرصتها، وبعد ذلك تشبثت بوجهة النظر القائلة بأن النظام الهاشمي في الأردن، وهو جار لا سبيل إلى الأمل في الحصول على جار يماثله في الخضوع والنفع لإسرائيل، ظل أفضل رهان في تحديد من يرعى تلك المنطقة لإسرائيل بوصفه شرطياً بالتعاقد. أما صهيونية الليكود فقد تشبثت بفكرة أن أرض إسرائيل التوراتية بحكم تعريفها تشمل يهودا والسامرة. وحينما ألغت الأردن مطالباتها بالضفة الغربية وقبلت الهوية الوطنية الفلسطينية فإن ذلك نقض الخيار الأول. كما لا يمكن تحويل الخيار الثاني إلى واقع إلا عند اشتعال نيران

<sup>14</sup> - الصراع العربي الإسرائيلي (مقابلة أجراها بيتر وولش، نيو لغت ريفيو 44/1 يوليو – أغسطس 1967. ص ص 30-45. 'The Arab-Israeli Conflict' (interview conducted by Peter Woolen), NLR I/44, July-August 1967, pp.30-45.

حرب ضخمة وما يصحبها من موجات طرد، وهو أمر ليس وشيك الحدوث. وكانت النتيجة طريقاً مسدوداً. وفي هذه الأثناء رجع الطرفان إلى برنامج توسيع الاستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة، ماضيين في اعتصار مساحة السكنى الفلسطينية واجتيازها ذهاباً وإياباً بابتزاز وضعها بين فكي كماشة تزداد ضغطاً في انتظار حل ما أكثر حسماً.

-8-

إلا أن عشرين عاماً من الاحتلال العسكري وتعديات الاستيطان أشعلت في النهاية المقاومة الشعبية. فالانتفاضة التي نشبت في ديسمبر 1987 بدأت كحركة مقاومة مدنية تلقائية غير مسلحة من جانب السكان الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية. وتلا ذلك الكفاح بأساليب غير متساوية- معظمها حجارة وعصي وسكاكين ضد بنادق ومدافع رشاشة. وكانت الانتفاضة علامة على ظهور جيل جديد من الشباب وسط يقظة وعي وطني عريض في الأراضي المحتلة. ولم تتعرض سيطرة إسرائيل على الأراضي التي تحتلها في الانتفاضة للتهديد الجدي على الإطلاق، كما لم يكن القمع الإسرائيلي قادراً على قتل الثورة، ولكن ما أنهى الانتفاضة كان انتصارات الولايات المتحدة في الحرب الباردة وحرب الخليج. وبسقوط الاتحاد السوفييتي وسحق آخر دول الشرق الأوسط القادرة على إغضاب واشنطن، تم عزل القضية الفلسطينية وصار للديبلوماسية الأمريكية يد طليقة لترتيب أوضاع جيب عدم استقرار تقليدي. وكان مؤتمر مدريد واتفاقات أوسلو المعادل المحلي لتوسع حلف الأطلسي في أوروبا الشرقية وحرب البلقان أي عقد الخيوط الفالطة المتبقية من هزيمة بالضربة القاضية.

ولهذا الغرض كان من الضروري شرطان، مبادرة مشتركة إسرائيلية وإذعان فلسطيني. وكان الشرط الثاني أسهل في التحقق من الأول لأن عرفات بعد أن حيا صدام خر على ركبته أمام كلينتون. فهو واحد من أقل قادة أي حركة قومية كفاءة. ولم تجد واشنطن إلا صعوبة صغيرة في التودد إليه لدفعه نحو دوره الذي رسمته له في الحل. وقد تملقته مظاهر اهتمام البيت الأبيض به، كما كان سهل التأثر بذلك إلى درجة ما من البداية. إلا أن إسرائيل كان من الصعب إقناعها وظلت تقاوم طوال فترة رئاسة شامير للحكومة. ولكن حينما استعاد حزب العمل السيطرة في القدس، فإن رابين وبيريز بمشورة المخابرات الإسرائيلية التي فحواها أن عرفات يمثل أفضل فرصة للسيطرة من قريب على الضفة وغزة، كانا على استعداد للتقدم. وكانت النتيجة اتفاقات أوسلو 1993 و1995، اعتراف رمزي متبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وانسحاب محدود لجيش الدفاع الإسرائيلي من غزة ومساحات من الضفة الغربية وإقامة سلطة فلسطينية "الحكم الذاتي" في مقابل تعهد عرفات بمنع أي هجمات على الاحتلال الإسرائيلي. وكان على ذلك أن يصبح بدء "عملية سلام" تؤدي إلى تسوية نهائية غير محددة المعالم في المستقبل، وتقوم بتشجيع تروسها في الفترة الانتقالية منح أوروبية أمريكية سخية للسلطة الفلسطينية وتعاون بين أجهزتها الأمنية والموساد، برئاسة المخابرات الأمريكية. وذلك كما قال عرفات لشعبه كان الطريق الملكي إلى دولة فلسطينية مستقلة.

-9-

لم يسبق لأي اتفاق دولي أن لقي تحية وتصفيقاً إجماعياً مثلما لقي اتفاق أوسلو. مصافحات تاريخية على عشب حديقة البيت الأبيض، وجائزة نوبل لكل المشاركين، وسيلاً من تعليقات التهنة أو تهنة الذات في مقالات وكتب حول العالم.

ولكن الوقائع على الأرض كانت شديدة الاختلاف. ومنذ البداية كتب بني موريس "مثل كل احتلال تأسس الاحتلال الإسرائيلي على القوة الغاشمة والقهر والخوف، التعاون مع العدو والخيانة، غرف الضرب والتعذيب والإرهاب اليومي، الإذلال والتلاعب"<sup>15</sup>. ولم يغير مجيء "عملية السلام" شيئاً من ذلك، فأى تغيرات جاءت بها؟ بعد ثمانى سنوات ظل جيش الدفاع الإسرائيلي مسيطراً بالكامل على 60 في المائة من الضفة الغربية وفي سيطرة مشتركة على 27 في المائة، كما أن شبكة من الطرق الجديدة الإسرائيلية الخالصة المبنية على أرض مصادرة تقسم وتحاصر المعازل المتبقية تحت السلطة الفلسطينية، وتضاعف عدد المستوطنين اليهود الذين يحتكرون 80 في المائة من كل مياه الأراضي المحتلة، وهبط دخل كل فرد من السكان الفلسطينيين بمقدار الربع في السنوات الخمس الأولى بعد الاتفاقيات، وواصل هبوطه منذ ذلك الوقت. وأضيف الآن إلى هذه العذابات استبداد وفساد "الدولة البوليسية بدون دولة" التي رأسها عرفات، في هذه الأماكن التي حصلت فيها على فرصة لاحتجاز مواطنيها لصالح إسرائيل<sup>16</sup>. وفي هذه الشروط لم يكن شيء أكثر يقيناً من استمرار أعمال العصيان الشعبي المتصاعد داخل مؤسسة متعاونة مع العدو بلا مصداقية. فتضاعفت الهجمات الإسلامية الراديكالية على إسرائيل ابتداء من منتصف التسعينات. ولكي يحطم باراك القوة الدافعة وراءها حاول نظام حزب العمل أن يشد عرفات إلى تسوية كاملة نهائية تمنحه استقلالاً شكلياً ومقعداً في هيئة الأمم في مقابل ضم إسرائيل لمستوطناتها في الضفة الغربية والقدس، والسيطرة الاستراتيجية الإسرائيلية على كل الأرض التي تحت الراية الفلسطينية ودفن أي حق للاجئين في استعادة بيوتهم في إسرائيل. وقد تراجع عرفات فجأة في اللحظة الأخيرة لفرعه من اتساع نطاق المعارضة لمثل هذا الاستسلام الذي يعني التخلي عن أي ادعاء بالعودة حتى إلى حدود 1967- ولخوفه على مستقبله إذا قام بالتوقيع. وبعد شهرين انفجرت الانتفاضة الثانية. وفي هذا الوقت كان الانبعاث عملية أكثر عنفاً ذات قاعدة أعرض بقدر كبير، جاذبة الأجنحة المنشقة من فتح وحتى أقساماً من جهاز السلطة الوطنية الفلسطينية نفسها إلى جوار المناضلين الأصوليين. ولكن ميزان القوى لم يكن قد تغير، فإذا أطلق عنان الجيش الإسرائيلي بالكامل فإنه سيكون قادراً على قطع رأس المقاومة في أي لحظة.

-10-

ومنذ البداية كان إدوارد سعيد أشجع نقاد اتفاقات أوسلو وأبعدهم نظراً. فمؤلفه "نهاية عملية السلام" الذي يضم كتاباته عن بلده الأصلي طوال السنوات الخمس الماضية كان عملاً نبوئياً. فهو يجمع رفضاً مطلقاً لعناصر النفاق والزيف التي غلفت ترتيبات تم تصميمها لمصالحة الفلسطينيين على خضوعهم، مع تجنب كامل للتنميقات البلاغية المختالة التفاهة للتعويض أو العقاب التي صاحبت دائماً بطريقة نموذجية معارضة هذه الترتيبات. وترتكز النتيجة السياسية

<sup>15</sup> - الضحايا المبررة أخلاقياً (مصدر سابق) ص 341. 341. Righteous Victims, p. 341.  
<sup>16</sup> - صيغة قدمها بفرلي ملتون إدواردز "الأمن الداخلي والمواطنة تحت حكم السلطة الوطنية الفلسطينية" تحرير نيلس بوتنتشون ويوري دافيس وماتويل هساشيان. المواطنة والدولة في الشرق الأوسط. سيراكوز، نيويورك 2000، ص 354. Beverley Milton-Edwards, 'Internal Security and Citizenship under the Palestinian National Authority', in Nils Butenschon, Uri Davis and Manuel Hassassian, eds, Citizenship and the State in the Middle East, Syracuse, NY, p. 354. ونجد أقوى عرض للوضع في الأراضي المحتلة عند إدوارد سعيد في: "الفلسطينيون تحت الحصار" لندن ريفيو أف بوكس 14 ديسمبر 2000. Edward Said, 'Palestinians under Siege', London Review of Books, 14 December 2000.  
أنظر أيضاً تلخيص أليجرا باشيليو المثير للإعجاب "عملية أوسلو، غير العادلة وغير الواقعية، لن تكون فعالة أبداً" إنترناشيونال هيرالد تريبيون، 6 أكتوبر 2000. Alegra Pacheco, 'The Oslo Process, Unfair and Unreal, Was Never Going to Work', International Herald Tribune, 6 October 2000.

الرئيسية التي استخلصها إدوارد سعيد من التاريخ القريب على تماثل مع جنوب أفريقيا. وهو يلاحظ هناك أن المؤتمر القومي الأفريقي كان قد أثنخته الضربات تمامًا على أرض المعركة، وكاد تنظيمه أن يدمر بالكامل داخل بلده. ولكنه كان قادرًا بواسطة الحملات المتسقة بالخارج على نزع الشرعية عن نظام الفصل العنصري معنويًا وعلى عزله إلى درجة أنه في النهاية طالب بيض أفريقيا أنفسهم الذين تعرضوا لكل أنواع المقاطعة الدولية بالمفاوضات، كما فككوا بالتدريج جهاز سيطرتهم. ويسوق سعيد الحجة على أنه بهذه الطريقة أيضًا "ينبغي أن تنطلق المقاومة الفلسطينية لكي تحقق تساويًا بيننا وبين الإسرائيليين الذين كانوا الغالبين حتى الآن. يجب أن يكون البعد الأخلاقي هو ميدان نضالنا الوحيد"<sup>17</sup>. ويؤخذ هنا عجز منظمة التحرير الفلسطينية طويل الأمد عن التوضيح الشامل لحقائق الاحتلال الإسرائيلي إلى جماهير الغرب بالطريقة التي نجح المؤتمر الوطني الأفريقي بالقيام بها طوال سنوات عدة، باعتباره الضعف الاستراتيجي الأساسي للقضية الفلسطينية. وتستقر قوة هذه الحجة على التباين – اللافت للأنظار بما يكفي بالتأكيد – بين مهارات الإقناع في اللحظتين وعلى المثل المؤثر لدفاع سعيد نفسه في المؤازرة. ولكن حدود الحجة تكمن في الاختلاف البنوي بين الموقفين الموضوعيين للمقهورين في دولتي الاسنيطان، جنوب أفريقيا وإسرائيل. فالنظام الأول كان معسكرًا مسلحًا لأقلية ليس لها في الواقع أي مساندة من عاصمة، فالأراضي الواطنة تتجنبه، وأكبر ما تستطيع الاعتماد عليه في أي مكان آخر من الغرب كان التعاطف من رجال أعمال أو بيروقراطيين وراء أبواب مغلقة. فلا يستطيع أي سياسي خارج جنوب أفريقيا أن يعتنق التمييز العرقي علانية. وفي الولايات المتحدة فضلًا عن ذلك كان هناك مجموعة ضخمة من المؤيدين تتماهى مع أغلبية سكتن جنوب أفريقيا السود، وكانت ضحية التمييز العرقي. وقد مثل الأمريكيون الأفارقة ضغطًا لا يمكن تجاهله ضد بريتوريا ضمن النظام السياسي الأمريكي، حتى أثناء حكم أشد الإدارات رجعية. أما وضع القضية الفلسطينية فهو العكس تمامًا<sup>18</sup>. وعلى حين توجد الآن أعداد كبيرة من المهاجرين العرب في الولايات المتحدة إلا أنهم في معظمهم عمال فقراء ومنقسمون وهامشيون ضمن التراتب الاجتماعي. أما إسرائيل التي يزيد سكانها على ضعف سكان الضفة الغربية وغزة فإنها تجتذب ولاء يهوديًا ضخمًا من جانب الطبقة الوسطى في أمريكا، وتعاطفًا واسع الانتشار عبر الطيف السياسي بأكمله في أوروبا. وحتى مع أفضل الإرادة الأخلاقية في العالم فإن هناك فرصة ضئيلة لتكرار سيناريو جنوب أفريقيا في الشرق الأوسط. ومع ذلك فالجهود لعزل إسرائيل وتوسيع التضامن مع القضية الفلسطينية تظل أكثر من أي وقت مضى ضرورية. ولكن الظن بأن الراي العام العالمي وحده سيكون له تأثير كبير على الصهيونية هو من قبيل الأوهام. فهناك أوضاع تاريخية يمكن فيها لقوة الحجة الأخلاقية أن تكون حاسمة كما يشهد إلغاء تجارة العبيد أو سقوط التفرة العرقية، ولكن هذه الأوضاع تتطلب إما غياً نسبيًا للمصالح المادية القوية التي تكون في المعتاد محددة للنضالات السياسية أو توازنًا بينها يمكن قلبه بواسطة الإقناع الأخلاقي. ولا يوجد أي من هذه الشروط في الشرق الأوسط اليوم.

<sup>17</sup> - نهاية عملية السلام. أوسلو وما بعدها. لندن 2000. ص ص 199 و9.

The End of Peace Process: Oslo and After, London, 2000, pp. 195-9.

<sup>18</sup> - الإمكانيات الموضوعية للحركتين في السيطرة على الراي العام في الغرب هي طرفا المقارنة هنا. وبطبيعة الحال فإن الفروق البنوية في موقفي القهر وثيقة الصلة بالموضوع. وبسبب استغلالها بوصفها قوة العمل الرئيسية في البلد كانت الطبقة العاملة الأفريقية لا يمكن الاستغناء عنها من جانب النظام العرقي مما يعطيها فاعلية تاريخية نهائية حرم منها الفلسطينيون الذين تم إقصاؤهم عن الصناعة الإسرائيلية دانمًا بالتعارض مع الوضع في جنوب أفريقيا. وتتكشف دراسة مقارنة العواقب السياسية لهذا التعارض قامت بها منى يونس: التحرير والمقرطة. الحركتان الوطنيتان الجنوب أفريقية والفلسطينية، وهي عمل أساسي لفهم الوضع الراهن.

وليس معنى ذلك القول بأنه لا توجد شروخ في توافق راض عن نفسه، فسعيد نفسه جذب الانتباه في هذه الصفحات إلى واحد منها. ففي الولايات المتحدة كما يوضح يكون نقد إسرائيل هو "المحظور الأخير" أكثر مخاطرة وأندر من نقد الولايات المتحدة نفسها<sup>19</sup>. وطوال سنولت كثيرة لم تجد الصهيونية الأمريكية إلا صعوبة ضئيلة في خنق أي انشقاق جدي، فهو يوضع أليًا في كليسيه كراهية الذات إذا كان يهوديًا، أو معاداة السامية إذا كان من الأغيار. وفي أوروبا هناك تنوع أكثر في الآراء ولكن مؤشراتنا تظل ضيقة نموذجيًا. وبالنسبة لأغلبية انتلجنسيا يهودية متميزة - كما بالنسبة لوجهات نظر محافظة أو ليبرالية أو اشتراكية ديموقراطية بشكل عام فإن ذكرى المحرقة النازية تعزل إسرائيل من أي شيء يزيد عن إبداء منقطع للخشية أو الأسف سرعان ما ينحى جانبًا فيما يمر بوصفه أمرًا طارئًا. ويمكن أخذ ردود الأفعال على حرب الخليج بوصفها اختبارًا لحساسية موحدة اعتمادًا على عناصر متناثرة. فالمصير التعس للفلستينيين يؤسف له من جميع الأطراف. ويمكن تعداد الراغبين في أن يتكلموا بصدق عن عملية سلام على أصابع يد واحدة.

وفي إسرائيل نفسها يكون في المتناول كما لاحظ إدوارد سعيد الاستماع إلى تلك الحقائق غير المريحة لإسرائيل عن نفسها وهي التي تعد كفرًا في الشتات. فهناك قد تم بحمق استكشاف دينامية الاستيطان وتوثيق آليات ونطاق عمليات طرد الفلستينيين وفضح التواطؤ مع القوى الإمبراطورية المتعاقبة، والاحتجاج على إقرار التعذيب بواسطة القانون، واستهجان الطبيعة الدينية الطائفية للدولة. ففي هارتس لا في نيويورك تايمز أو الجارديان أو اللوموند أو ريبوبليكا قد قورن قانون العودة بقوانين نورمبرج (سلسلة القوانين النازية المعادية لليهود أعلنت في حشد نورمبرج عام 1935) مقلنة حرة. إن ظهور تخصص ما بعد الصهيونية وقطاعه الذي ما زال صغيرًا من الرأي العام هو واحد من التطورات الجديدة بالترحيب في السنوات الأخيرة<sup>20</sup>. ولكن السياق الذي ظهر فيه يحذرنا من أي تفاؤل مبالغ فيه.

ومنذ التسعينات اقترب المشهد السياسي الإسرائيلي بدرجات متزايدة من التشابه مع المشهد الأمريكي، وإن احتفظ بالقليل من اللمسات الأوروبية. ومن الناحية الاقتصادية اكتسحت الليبرالية الجديدة معظم علامات الطريق التي أرسيت في الخمسينات. فبعد أن نافس حزب العمل حزب الليكود بل وتفوق عليه غالبًا في حماسه لتصفية التوجيه الحكومي وللخصخصة. فالجزء الأساسي من امبراطورية الهستدروت الصناعية وهي أكبر تكتل اسرائيلي للشركات قد تم فصله وبيعه لديزني، كما تم تفكيك المجمع الطبي أثناء حكم رايبين وخصخصة أكبر بنك في البلاد وهو الذي كان مؤسسة تابعة للهستدروت بواسطة نتنياهو. وعكفت حكومة شارون على إعداد خطط خصخصة الأرض بطبيعة

<sup>19</sup> - محظور أمريكا الأخير. نيو لفت ريفيو، نوفمبر/ ديسمبر 2000. ص ص 45-53.

America's Last Taboo, NLR 6, November-December 2000, pp.45-53.

<sup>20</sup> - ما بعد الصهيونية هو لفظ مهلهل التحديد وعلى نحو ما مضل. وما يدل عليه أساسًا هو نبذ الأسطورة الرسمية للشخصية الإسرائيلية والالتزام بالحقيقة التاريخية مهما تكن عواقبها بالنسبة لقصة التحرير القومي. ولا تحتاج إلى تضمن أي قطيعة سياسية مع الصهيونية، أي التأييد التقليدي لوجود دولة يهودية في الشرق الأوسط. وفي إطار صفوف ما بعد الصهيونية هناك مدى من الأفكار حول قبول الوضع الراهن لإسرائيل، أما النقاد الراديكاليون فيظنون أقلية. وعن مسح الواقع أنظر كتاب لورنس سبيرستاين مجادلات ما بعد الصهيونية، لندن 1999.

Laurence Siberstein: The Postzionism Debates. London, 1999

الحال لليهود والأجانب المناسبين وحدهم. وفي فترة عقد واحد هبط نصيب القطاع العام من الناتج القومي الإجمالي من ما يزيد على النصف إلى ما يقرب من الثلث، ومن الاستثمار من 85 إلى 15 في المائة. وفي إسرائيل اليوم يقل الإنفاق الاجتماعي عن مثيله في الولايات المتحدة. وأصبح البلد ثاني اثنين من مجتمعين هما أكثر المجتمعات إغالا في عدم المساواة داخل العالم الرأسمالي المتقدم<sup>21</sup>.

ولكن كما هي الحال في الولايات المتحدة فإن التقارب غالباً إلى نقطة القابلية للاستبدال بين الحزبين الكبيرين حول القضايا الاقتصادية والاجتماعية يتعايش مع قاعدتين انتخابيتين متباعدتين تباعدًا حادًا، ومع وجهين إيديولوجيين متباعدين بنفس الحدة، كما أن درجات اللون في الولاء للرأسمالية ليست إلا إثارة الجاذبية<sup>22</sup>.

ولكن فيما عدا ذلك، وإلى مدى أوسع من أمريكا، كلما ازداد تماثل السياسات الجوهرية، أصبحت التمايزات الثانوية أكثر حدة. وكما هو الأمر بين الديموقراطيين والجمهوريين، تشابه الأمر بين العمل والليكوود: فإن صراعًا ثقافيًا Kulturkampf خارجاً على كل تناسب مع التناقضات الواقعية هو الذي يحشد ويعيىء الانفعالات الحزبية كما لو كان ذلك لوضع القناع الذي يحجب عن المتصارعين أنفسهم الوحدة الأعمق بينهم. وبدرجة أكبر حتى مما في أمريكا، فإن الكتلة الأساسية من العالم الأكاديمي ومن المثقفين تشكل بيئة من يسار الوسط أفراده هم الواثقون من صلاحهم وصوابهم، الذين يصور إيزاك لاور Yitzhak Laor أشكال خداع الذات عندهم تصويرًا نابضًا بالحياة فيما يلي<sup>23</sup>.

ولكن في ثقافة شعبية تسبطن عليها التجارة والديانة يكون تكرار حدوثها كما في الولايات المتحدة ضئيلاً. فهناك اختلافان يواصلان تمييز الحالة الإسرائيلية من النموذج الأمريكي. فالعلاقات العامة تعطي تلك الوفرة من المذاهب اليهودية تمثيلها الانتخابي الخاص أي في الواقع جاعلة منها الفيصل في التحالفات داخل الكنيسب. وبذلك يكون لليكوود ثقلاً دينياً مميزاً أقل من الحزب الجمهوري. كما أن له ناخبين أقل ثراء مادام تأييده الأول مستقرًا وسط المهاجرين السفارديم الأفقر من شمالي أفريقيا والشرق الأوسط المحترقين من الأشكيناز الأفضل تعليمًا المهاجرين من شرقي أوروبا الذين يشكلون القاعدة التقليدية لحزب العمل. وهكذا يوجد انحراف طبقي بين الحزبين الإسرائيليين يقابله الطراز الأمريكي. أما المهاجرون الروس، الصقور فيما يتعلق بالأمن، ولكنهم بالمثل معادون لحكم رجال الدين، فهم ناخبون متأرجحون. وحصيلة النظام قد لخصها بوضوح مراقب إسرائيلي "إن اللاعبين الرئيسيين في الدراما الاجتماعية السياسية التي تحدث في إسرائيل اليوم ينتمون إلى اليمين واليمين الليبرالي الاجتماعي الاقتصادي من

21- أنظر شافير وبيليد: إسرائيل الجديدة ص ص 111-112، 194، 223، 233، 234.. Shafir & Peled: The New Israel  
 22- يوسي بيلين Yusi Beilin وهو يعتبر معادلاً لبيتر ماندلسون Peter Mandelson في إنجلترا (مدير حملات حزب العمال الجديد في بريطانيا) وهو مخطط اتفاقات أوسلو، فسر الأمر قائلاً: لا أظن من الصواب القول إننا في حزب العمل تنبينا الطريق الرأسمالي، بل نحن اشتراكيون وديموقراطيين بنينا الطريق الثالث المشابه لما دعا إليه إليه أنتوني جينز A. Giddens ووضع نموذجة توني بليير، Tikun, Sept./Oct., 2001. ووسط ضجيج أعمال الإنشاءات لبناء مستوطنات جديدة وطرق استراتيجية في الضفة الغربية، وجد باراك وقتاً لتوزيع نسخ من كتاب جينز على كل أعضاء مجلس وزرائه.

23- أنظر عن هجوم حماسي على المؤسسة الإسرائيلية من اليمين: الدولة اليهودية: النضال من أجل روح إسرائيل The Jewish State: The struggle for Israel's soul (نيويورك، 2001) بقلم يوران حازوني Yoran Hazony وهو أحد مسيشاري نتنياهو، وهو يعطي صورة حية لما يراه المؤلف باعتباره الخيانة المحلية للكتبة trahir des clerics "تفريغ الإيمان الصهيوني وسط مثقفي التيار الرئيسي بتأثير إفساد المعنويات بواسطة أقلية من الفلاسفة والمؤرخين ذوي التدريب الألماني (بويير، شوليم، بروار، تالمون... إلخ) الذين اتصلوا منها منذ البداية. والمنظر الذي يأسف له هازوني يقوم في معظمه بالتخفيف ولكن شكواه الأوسع من سوقية عامة تباع فيها أي أفكار بسعر مخفض لها رنين الصدق. ولم تفعل ثقافة العمل التقليدية - الخلبط من نعمة الرجولة وجيشان العاطفة- التي تعد شخصيات مثل عاموس عوز تجسيداً نموذجياً لها- إلا القليل لدحض استهجانه الذي لم يستثن منه هازوني بيجن أو زملاءه.

الطبقات العليا الرأسمالية يسمى في إسرائيل "اليسار" – كما أن اليمين العرقي الديني الأصولي من الطبقات العاملة يسمى في إسرائيل "الشعب"<sup>24</sup>.

هذا هو المشهد غير الواعد الذي يناقش فيه مستقبل الصهيونية اليوم. وهنا تظل الاختلافات بين الحزبين الرئيسيين المتجذرة في التناحر طويل العهد بين العمل والتقاليد المراجعة جوهرية وإن تكن تكتيكية. كانت صهيونية العمل قد واصلت الاعتماد على الحماية الأجنبي من نوع أو آخر، كما كانت مستعدة دائماً لإجراء تعديلات مؤقتة في السياسة لتتلاءم معهم. وكانت نظرتها براجماتية، والأسماء تحسب أقل قيمة من الأشياء. أما التقليد المراجع صاحب التميز الفكري الأعظم فقد كان أكثر اعتماداً على الذات وأقل مرونة حيث الأسماء بقيت قرينة على الأشياء. وهكذا اعتقد العمل أن منح الفلسطينيين عدداً من البانتوستات (المعازل المحاصرة في كل بضعة كيلومترات بمستوطنين وجنود إسرائيليون) سيهدئ مخاوف واشنطن ويزيل منطقة متاعب لإسرائيل بتكلفة فعلية ضئيلة على حين أن الليكود وهو يتذكر تاريخ الصهيونية نفسها يعتقد أن الشهية تجمي مع الأكل، وأن ما هو مجرد تسمية اليوم من المحتمل أن يكتسب بعض الواقع غداً. وليس لدى أي من الطرفين أي نية في التفكير بسيادة قومية حقيقية للفلسطينيين. وحينما واجهتهم الإرادة الشعبية والفعلية للصفة الغربية وغزة، فقد ضموا الصفوف فوراً، وسنجد نظام شارون بيريز الحالي. ووراءه يوجد اتحاد مقدس من الجحود والغضب يرفض "التنازلات" الإسرائيلية في كامب دافيد ويمتد عبر الطيف السياسي.

#### -14-

وفي هذا السياق يمكن قياس الشجاعة والجبن كليهما في ما بعد الصهيونية<sup>25</sup>. وهناك اعتراف واسع النطاق الآن بالإنجاز الفكري المتميز لأعمال بني موريس وأني شلايم وجيرشوم شافير وباروخ كيمرلنج وتوم سيجيف. فقد تم تقويض أبنية الأسطورة الصهيونية الرسمية تباغاً. ولكن البحث الجسور ونتائجه التي لا تعرف تهادناً التي ميزت استقصاءاتهم للماضي توقف فجأة منحسراً في الحاضر بمجرد أن طرحت مسائل سياسية. فهؤلاء السباع في التحليل أصبحوا حملاتاً في اقتراح التوجهات. فلم يطرح أحد منهم أسلوباً للمساءلة الجديدة، دع عنك جانباً كامب ديفيد. وأفاض أكثر من واحد في الحماس لبارك. وما من واحد اقترح أي بديل لنقاط النفاق فيما يسمى بعملية السلام. ولكن ماذا ينبغي أن يكون هذا البديل؟ من الناحية التاريخية كانت هناك نزعة داخل المجتمع اليهودي تدلل على أن دولة ثنائية القومية وحدها، مقسمة بالتساوي بين العرب واليهود، هي التي تستطيع أن تقيم العدالة في فلسطين. وكان لهذا التقليد اللاصهيوني الموجود أساساً داخل اليهود من أصل ألماني ملاذه في الجامعة العبرية في القدس، كما وجد تعبيراً سياسياً في الحركة الشيوعية. وعلى الرغم من أن إدوارد سعيد حاول إحياءه منذ انقراضه بالكامل في إسرائيل اليوم. ومهما يكن مثل هذا الحل مفضلاً فقد كان دائماً مقضياً عليه بالتعثر على واقع نزعتين قوميتين عرقيتين متناحرتين، كل منهما تطالب لنفسها بالحق في تقرير المصير. وهذا لا يترك إلا التقسيم. وكل المخططات لأي تسوية قد تطلبت تقسيم فلسطين. فما هو الاقتراح الإسرائيلي الذي بقي أمام ما بعد الصهيونية لكي تفصل نفسها عنه؟ إنه

<sup>24</sup> - يوري رام Yuri Ram: أرض ميعاد فرص البيزنس، ما بعد الصهيونية الليبرالية في عصر العولمة. في شافير وبيلايد: إسرائيل الجديدة ص 236. (من الأصل بالإنجليزية)

<sup>25</sup> - هناك تيار راديكالي ضمن ما بعد الصهيونية ينبغي تمييزه من الاتجاه السائد، تيار يرفض مقدمات الصهيونية نفسها. وليس كل المرتبطون بهذا الجناح يقبلون البادئة "بعد". فالمؤرخ آلان بابيه يفضل الكلام عن لا-صهيونية. وتحت ضغط الأحداث يمكن توقع تمايز سياسي لاحق ضمن مجال ما بعد الصهيونية.

يستند على أربع مسلمات تحدد حجم وموقع وأمن واقتصاد أي كيان فلسطيني متبق يتعين منحه الحكم الذاتي أو شكلاً اسمياً لدولة. الحجم أقل من خمس فلسطين وستحتفظ إسرائيل بالثمانية والسبعين في المائة من أرض فلسطين التي احتلتها فيما بين 1948-1949، بالإضافة إلى القدس وحصّة من المستوطنات في الضفة الغربية التي من المعتبر أنها تشكل 5 أو 6 في المائة إضافية. الموقع معزّلان منفصلان دون أي مدينة كبيرة من مدن ما قبل الحرب ودون ميناء طبيعي. الأمن لا قوة عسكرية للدفاع بل بوليس محلي. الاقتصاد: لا تعويضات عن نهب الأرض العربية التي تقدرها هيئة الأمم بمقدار 120 بليوناً من الجنيهات الاسترلينية.

-15-

ولم يكد ما في هذه الاقتراحات داخل صميم عملية السلام من إحجاف وقح يثير مجرد غمغمة احتجاج في الشتات حيث يسود التضامن العرقي فوق المبدأ الأخلاقي، دع عنك ما في إسرائيل نفسها. ومن الممكن اتخاذها على أي حال معايير يمكن أن تقيس جدارة أي حل بالقبول. ومنذ عقد من الزمان اقترح جي ماندرون Guy Mandron وهو ضابط فرنسي لديه بعض الفهم لنظرة إسرائيل العسكرية تقسيمًا لفلسطين يتميز على الأقل بالاستجابة لمعيارين من معايير تسوية عادلة. وقد حدد مخططه أن أي دولة فلسطينية يجب أن تشكل أرضاً مفردة متصلة ويمكن الدفاع عنها بالسلاح بقدر لا يقل عن نظيرتها الإسرائيلية. وستكون النظرة إلى خرائطه التي تبين المسافة الكاملة بين ما يعنيه ذلك وما هو "معروض" اليوم بمثابة صدمة صحية. وسيكون ذلك أكثر وضوحاً عندما نتحقق من أن هذه الخطة لا تحاول إطلاقاً تعديل التوزيع الصافي للأرض بين الدولتين المقترحتين، ولا تسترجع أي مدينة كبيرة أو أي ميناء للجانب الفلسطيني. ولم يحاول ماندرون تبرير احتفاظه بالنسب الموجودة لمساحة الأرض ملاحظاً أن نقاط بدء أخرى ممكنة. وهناك اليوم ما يقرب من ستة ملايين يهودي في إسرائيل وما يقرب من ستة ملايين فلسطيني مبعثرين في الأراضي المحتلة والمخيمات في الدول المجاورة وفي إسرائيل نفسها. وأي تقسيم عادل للأرض بين هذين العديدين المتساويين تقريباً يتطلب تكافؤاً تقريبياً في الموارد. فالشكل المحدد لترتيب الأراضي ضمن تقسيم عادل ينبغي أن يبدو قريباً من مخطط ماندرون بدون "التعويضات" التي يقدمها لإسرائيل وإدماج حيفا التي كان ثلثا سكانها من العرب عام 1947، وبكلمات أخرى كتلة مفردة من الأرض الفلسطينية تنتزع غزة وتغطي الضفة الغربية والقدس الشرقية والجليل والخط الساحلي من لبنان إلى حيفا، في حزام على طول إسرائيل وينحني فوقها ليشكل دولتين لهما شكلا حرفي اللام L متشابكين. كما أن تعويضات الممتلكات العربية داخل الأراضي الإسرائيلية التي نهبت عام 1950، وهي الشرط الأخير للتسوية ينبغي أن تذهب إلى هؤلاء الفلسطينيين غير القادرين على العودة إلى بيوتهم عبر الحدود الجديدة وأولئك الذين يسكنون إسرائيل الآن واختاروا البقاء هناك.

-16-

ويكفي أن تعرض هذه الشروط لتسمع هز الأكتاف بأسف من جانب "الأرواح النبيلة" في الصهيونية الليبرالية وما بعد الصهيونية معاً – "كل هذا حسن جداً، ولكن ليس بعيداً جداً عن السياسة العملية؟"، وترجمة ذلك، نحن نملك ما نمسك به. ولا توجد أدنى نية، في أي مكان من جبهة الرأي هذه، لإعادة بوصة مربعة من مساحة تبلغ 78 في المائة



من فلسطين مغلقة أمام أي استرداد، أو أصغر فكرة عن أن التنازل عن أقل قدر من الأراضي الباقية التي تشكل 22 في المائة لن يكون إلا "تنازلاً مؤلماً"<sup>26</sup>. ويقول بني موريس: لقد قامت إسرائيل بنصيبها فاعترفت بمنظمة التحرير، وضرورة تقسيم فلسطين بين دولة يهودية ودولة فلسطينية أصغر. وتلك ثورة ضخمة في تفكير إسرائيل مقارنة بما كان عليه الإسرائيليون في هذه المسألة في السنوات ما بين 1948-1992، بل لقد ذهب باراك إلى ما هو أبعد موافقاً على تقسيم القدس. ولكن إسرائيل لا تستطيع أن تقبل حق العودة دون مواجهة تدميرها.

ويعترف توم سيجيف بحرية: "يبدو ما يقدمه باراك أقل سخاء مما يظهر به حينما ننظر إلى التفاصيل (كذا). الأرض التي نعرضها يظهر أنها سلسلة من الجزر الصغيرة وليست أرضاً متصلة، وهي منفصلة بواسطة مستوطنات إسرائيلية وطرق يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي. فالحقيقة إذن هي أننا لم نقدم لهم الكثير".

ويواصل القول بهدوء وتماسك: "لقد وصلت إلى التحقق من أن الصراع حتمي، وأن الحرب لا مناص عنها. والآن مع وجود المستوطنات في مكانها فإن استمرار الصراع حتمي، ولن يكون هناك سلام في ذلك الوقت. وكنت دائماً ضد المستوطنات، أما وهي قائمة الآن... فإنها حقائق جديدة، ولن تستطيع إجلاء مدن بأكملها.

وكما يقول ديفيد جروسمان المعروف بتعاطفه مع دولة فلسطين:

بارك وضع كل شيء على المنضدة، وفعل ذلك بالطريقة الخاطئة. ولكنني أظن أن معظم الإسرائيليين يعرفون الآن ما علينا أن نتنازل عنه لصنع سلام حقيقي، وأنا أظن أن انتخاب آرييل شارون يكشف عن أن معظم الإسرائيليين ليسوا ناضجين بما فيه الكفاية لتقديم تلك التنازلات. وحينما أصغي إلى الفلسطينيين فإنني لست متأكدًا من أنهم مستعدون لتقديم التنازلات التي يحتاجون إلى القيام بها، وهي التخلي عن مطلب حق العودة<sup>27</sup>. أو كما يضع جيروم سلاتر المسألة بلطف - وهو الكلمة الأخيرة في الصهيونية التقدمية، الذي كرس نفسه للمصالحة مع الفلسطينيين بأسلوب أوسلو - شارحاً لماذا لا يكون من المستطاع السماح لهم بالعودة: إن مرور الوقت لا يخلق فحسب وقائع عملية جديدة، بل يخلق أيضاً وقائع معنوية أكثر تعقيداً. وليس ذلك مسألة "القوة تصنع الحق" بل إن ما بدأ كقوة قد يرتقي إلى حق، أو على الأقل إلى حقوق<sup>28</sup>. وبالمواجهة مع مثل هذا التدليل يكون تقليد المراجعة أشد استقامة وتماسكاً. فلماذا لا تعطي للقوة فسحة قليلة من الوقت لتقوم بعملها. فإذا كان حقاً بالكامل أخذ أربعة أخماس البلد، فما هو الخطأ في إكمال المهمة وأخذ البلد كله؟ فالله لم يقم بتقسيمه بل أعطاه لنا بأكمله.

و ضد التعاسة الفكرية لعملية السلام، التي يتشبهت بها هذا الصنف من أنصار ما بعد الصهيونية في استيئاس تبدو حجة أرض إسرائيل التوراتية غير قابلة للدحض.

<sup>26</sup> - بني موريس: "ضحايا مبررون أخلاقياً" ص 651.

<sup>27</sup> وعلى التوالي: نيكون، مارس - أبريل 2001، (موريس) يناير فبراير 2001 (سيجيف)، مايو - يونيو 2001 (جروسمان) شلاين الذي كانت مدانحه لباراك أكثر المدانح في الحماس، محيياً مجيئه إلى الحكم باعتباره أكثر من زلزال "كان إشراق الشمس بعد سنوات ثلاث مظلمة ورهيبية" - يكتب الآن، اتفاقات أوسلو لم تفشل، لقد كان إيهود باراك هو الذي قوضها، فالاتفاقات كانت عن تمييز وغرس المصالح المشتركة" وفي عينية "إن ضم إسرائيل لحوالي 10 في المائة من الضفة الغربية حيث تقيم كتلة المستوطنين تاركة "دولة فلسطينية منزوعة السلاح عاصمتها في قرية أبو ديس، قريبة من الحدود البلدية للقدس" يشكل شروطاً ملائمة (هكذا). أنظر لندن ريفيو أوف بوكس، 10 سبتمبر 1999، و 25 يناير 2001، آخر صفحة 27.

<sup>28</sup> - جيروم سلاتر: "هل تمكن مصالحة الصهيونية مع العدالة للفلسطينيين؟" J. Slater: Can Zionism be Reconciled with Justice for Palestinians? Tikons: volume 15. No 4, 2000, p 25.

ومهما تكن مقاومة الفلسطينيين لجيش الدفاع الإسرائيلي شديدة الشجاعة. فإنهم يبلغون من الضعف درجة لا تترك لهم الكثير من الأمل في الحصول على العدل بقوتهم الذاتية وحدها اليوم أو غدًا. فعاجلاً أو آجلاً وربما عاجلاً أقرب من آجلاً ستحصل صهيونية العمل على فرصتها لتشدد ضغط شواية كامب ديفيد عليهم. فالغريزة المغروسة في نظام عرفات هي بالصيغة العربية الهرولة<sup>29</sup>. فالذين أدمنوا الرشوة الأمريكية بعد الرشوة واعتادوا تعليمات وكالة المخابرات الأمريكية لن يعوقهم إلا القصاص الشعبي. وما دامت الانتفاضة مستمرة متجاوزة السيطرة، فستظل السلطة الوطنية الفلسطينية تماطل. ولكن ما من انتفاضة تستمر إلى الأبد. وتحت وطأة حصار ونيران استهداف دون هوادة قد يسري وسط الفلسطينيين إجهاد (إنهاك) يجعل أي نوع من السلام يبدو أفضل من استمرار حرب غير متكافئة. ومن يستطيع لومهم؟ وستكون هناك مرة ثانية مناظر مثيرة للعواطف على بساط العشب أمام البيت الأبيض، وجوقة تهنئات من "المجتمع الدولي" عند التبشير بدويلة ممزقة الأوصال، ترتوي نخبتها من تمويل سخي وتلوح في مكان ما غرب نهر الأردن. وتعرف إسرائيل كيف تسوس أرضاً عربية تابعة، حيث يشبه حاكم فلسطيني ما الراند اللبناني حداد آمل أن تتدهور السلطة الفلسطينية إلى وضع جيش لبنان الجنوبي مجسداً تجسيداً بارزاً. والمستقبل هو الذي سيكشف عن إمكان إخضاع الفلسطينيين طويلاً على هذا النحو. إن زمن محو أبناء مدين وأبناء عماليق على أيدي الإسرائيليين دون ذكرى قد انقضى. والتوافق الإسرائيلي واع بذلك وهذا هو سبب الشرط الذي في مقدمة كل الشروط التي لا تقبل تفاوضاً المرتبطة بوضع دولة فلسطينية، والذي لم يسمع أحد قط أي انشقاق مهم عنه: شرط أن تكون إسرائيل مكتملة التسليح على حين تكون الدولة الفلسطينية منزوعة السلاح ولا معدى عن ذلك، فكيف بغير ذلك تستطيع الجوارح التي تسيطر على 78% من أرض فلسطين كلها مهما تكن كفاءة حراستهم بواسطة كلاب حربهم أن يناموا قريري العين؟ إنه المطلب الذي يوافق عليه كل فرد إسرائيلي صحيح التفكير يعترف بالجريمة الأصلية التي لا يمكن تهدئتها.

ألا يوجد إمكان آخر؟ السلطة الإسرائيلية لن ندعن لأي شيء إلا القوة. ولكن قوتها لها نقطة ضعفها القاتلة. فهي ستبقى دولة تابعة في نهاية الأمر في دفاعها ورخائها للولايات المتحدة. لقد ظل مصيرها دائماً خاضعاً للحماية الأجنبية، ولا تستطيع مواصلة البقاء إذا غابت هذه الحماية. فإذا سحب التأييد الأمريكي في أي وقت من الصهيونية، فإن تصلبها سيتآكل بسرعة. فتشدد الرأي العام في إسرائيل الذي ظل شرطه زمناً طويلاً تأكده من التصويت الأمريكي بالموافقة هو بهذا المعنى أكثر هشاشة مما يبدو. فلوكان على واشنطن أن تسحب البساط من تحت أقدام القدس، لما تأخرت تغييرات تفكير غير متوقعة في الحدوث. ولكن كيف يمكن أمريكا على الإطلاق أن تفكر في مثل هذه الخيانة؟ وتقع الإجابة كما قبعت منذ الخمسينات في العالم العربي. وطالما ظلت الدولتان الرئيسيتان فيه وهما مصر بسكانها والعربية السعودية بنفطها تابعتين لأمريكا، فسيكون الشرق الأوسط ونفطه في قبضة أمريكا بأمان، ولا يكون هناك سبب لمنع

<sup>29</sup> - الصيغة "المهرلون" التي صاغها الشاعر السوري نزار قباني بعد مصافحة رابين و عرفات على بساط العشب أمام البيت الأبيض، واكتسبت رواجاً عاماً في العالم العربي. أنظر شلايم: "الحائط الحديدي The Iron Wall وتاريخ من الإحباط" في لندن ريببواوف بوكس، 22 يونيو 2000.

إسرائيل من أي شيء ترغب فيه. ولكن إذا ما تغير ذلك في أي وقت فإن مصير الإسرائيليين سيتغير فوراً. لقد استثمرت أمريكا مبالغ ضخمة في دعم أوضاع ديكتاتورية نخرها السوس في مصر دون اعتبار لموقف الجماهير المصرية، ولم تدخر جهداً في حماية ثراء القرون الوسطى في الرياض، الجاثم فوق بحر من عمالة المهاجرين والمحرومين من كل الحقوق. وإذا سقط أحد هذين الصرحين أو كلاهما في أفضل الأحوال فإن ميزان القوة في المنطقة سيتحول.

ولكن التاريخ السياسي الكئيب للعالم العربي طوال نصف القرن الأخير لا يعطي إلا أوهى الأسباب للتفكير في أن ذلك محتمل في المدى القصير. كما لا يوجد أي ضمان لأن تقوم أنظمة قادمة بتحسين سجل ناصر والفاشليين الآخرين في زمنه. ولكن ما من ركود مستمر دائماً حتى في الشرق الأوسط، وأي قطيعة حقيقية في نظم سلطته سيفرض على بوصلة الولايات المتحدة الارتجاج. فإن أنظمة مستقلة استقلالاً حقيقياً على النيل أو في مكة تستطيع في أقرب وقت أن تضع أهمية الصلة الصهيونية مع أمريكا في علاقتها النسبية الصحيحة. وقد يكون الدم أكثر كثافة من الماء ولكن النفط أكثر كثافة منهما. إن وجود الفلسطينيين في الأسر هو عاقبة من عواقب خضوع أوسع في الشرق الأوسط. لذلك فاليوم الذي يكف فيه العالم العربي عن الهرولة نحو واشنطن -إذا كان ممكناً أن يجيء- سيجعل إسرائيل مضطراً إلى أن تتقياً مكاسبها غير المتكافئة. وبأقل من ذلك ليس من المحتمل دفع الصهيونية إلى أن تنزحزح.